العلامة الطاهر ابن عاشور وأسلوبه البلاغي في

إبراز معاني الآيات الجمالية

براهمي عباس

مستاري محمد الأمين

مدخل

إن من أجل ما ينشغل به الطالب، ويسدد فيه عزمه، هو أن يتوجه اهتمامه إلى خدمة كتاب من كتب العلماء السالفين، إذ أن مؤلفاتهم كنز ثمين، وذخر مدفون ينتظر إلى جهود من يستخرج لآلئه، ويبرز مكنوناته، وهذا البحث إنما أتى ليجسد تلك الغاية بدراسة منهج لمؤلف برز نجمه في صفوف المفسرين وهو الشيخ الطاهر ابن عاشور حين ألف تفسيره التحرير والتنوير، بما بث فيه من نفائس علومه، وكنوز معارفه،وقد أراد الباحث من هذا البحث إبراز السمات التي تميز بها أسلوب الشيخ الطاهر ابن عاشور البلاغي في تفسيره الذي أبدع فيه وأفاد.

المبحث الأول: ترجمة مختصرة للشيخ الطاهر ابن عاشور

1- اسمه ونسبه ومولده:

هو محمد الطاهر الثاني بن الشيخ محمد بن محمد الطاهر الأول بن محمد بن الشاذلي بن عبد القادر محمد بن عاشور الشريف الأندلسي ثم التونسي[1].

---

[1] الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير ، تأليف هيا، ثامر مفتاح العلي، ص 19.

ولد الشيخ في ضاحية المرسى، في قصر جده للأم الوزير آنذاك محمد العزيزي بو عتور، سنة (1296 هـ - 1879 م)[2].

2- نشأة الطاهر بن عاشور العلمية:

نشأ الشيخ الطاهر في بيئة علمية، كان صاحب همة عالية، ولا غرابة في ذلك، فأبوه وهو محمد بن عاشور كان رئيسالمجلس دائرة جمعية الأوقاف، وجده محمد الطاهر ابن عاشور كان قاضيا ومفتيا، وكان عضوا في مجلس الشورى في وقته.

نشأ رحمه الله في جو علمي محاط بالجاه، بدأ تعلم القرآن في سن السادسة، وأتبعه بحفظ لمتون على يد ثلة من الشيوخ[3].

التحق بجامع الزيتونة سنة 1310هـ، نهل من علوم شيوخها، وكانت ذو همة عالية، لا يفتر عن حضور مجالس العلم، فكثر شيوخه وتعددت علومه، حتى بلغ شأوا عظيما[4].

4- شيوخه وتلاميذه:

لقد كان للشيخ الطاهر ابن عاشور شيوخ كثر،نهم من علومهم، وعكف على دروسهم، وأجازوه، من أولئك الشيوخ: جده لأمه محمد العزيز بوعتور (1325 هـ)، والشيخ أحمد بن بدر الكافي ، والشيخ سالم بوحاجب (1924 م)، والشيخ عمر ابن الشيخ (1911 م)، وغيرهم كثير.

وأما من تلاميذ الشيخ، فمنهم ابناه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، والشيخ عبد الملك ابن عاشور، والشيخ محمد الصادق المعروف ب "بسيس"، وغيرهم كثير[5].

---

[2] المصدر السابق، ص 25.

[3] شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره الغالي، بلقاسم، ص 37.

[4] محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، إياد، خالد الطباع ، ص 30.

5- مؤلفاته:

لقد كان للشيخ الطاهر ابن عاشور كثير من المؤلفات والكتاب، نظرا لاهتمامه رحمه الله بالتأليف، فمن تلك المؤلفات: كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، والنظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح، وتعليقات تحقيق على حديث أم زرع (مخطوط)، والتحرير والتنوير، وآراء اجتهادية (مخطوط)، والأمالي على مختصر خليل (مخطوط)، وحاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب "التنقيح على شرح تنقيح الفصول في الأصول" للقرافي، وغير تلك المؤلفات التي خلفها شيخها ذكرا للمكتبة الإسلامية، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

3- وفاته:

توفي الشيخ المفسر محمد الطاهر ابن عاشور يوم الأحد 13 رجب 1393 هـ الموافق 12 أوت 1973 م، عن أربع و تسعين سنة، في ضاحية المرسى قرب تونس العاصمة، ودفن رحمه الله بمقبرة الزلاج من مدينة تونس[6].

المبحث الثاني: التعريف بكتاب التحرير والتنوير وقيمته العلمية

1 -اسم الكتاب وسبب تأليفه

يعرف هذا التفسير باسم التحرير والتنوير مختصرا بين أهل العلم، أما عن اسمه التفصيلي فقد صرح به مؤلفه نفسه في مقدمة كتابه فقال: "وسميته تحرير المعنى السديد ، وتنوير العقل الجديد ، من تفسير الكتاب المجيد، واختصرت هذا الاسم باسم التحرير والتنوير من التفسير"[7].

---

[5] محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، إياد، خالد الطباع ، ص 46-47.

[6] المصدر السابق، ص 87.

وسبب تأليف الشيخ رحمه الله لتفسيره هو الجمع بين ما كتبه السابقون من المفسرين مع ملاحظة ما يحتاجه العصر من أفكار جديدة يستفيد منها القارئ المعاصر، وقد أشار إلى ذلك في كتابه[8]. ولعل خلو التفاسير عن مقصد الشيخ رحمه الله هو الذي دفعه إلى تأليف التحرير والتنوير[9].

2 – قيمته العلمية

تكمن قيمة الكتاب في أمور من أهمها:

1– ترجع أهمية التحرير والتنوير العلمية، إلى مكانة مؤلفه الشيخ الطاهر ابن عاشور العلمية، فلقد كان عالما مبرزا، ومرجعا شهد لعلمه أهل عصره، بذل حياته للعلم والتعليم، وتقلد مناصب ووظائف تظهر المكانة المرموقة التي بلغها، يقول فيه الشيخ محمد الخضر حسين: "ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم"[10]، ويقول أيضا: " شب الأستاذ على ذكاء فائق، وألمعية وقادة، فلم يلبث أن ظهر نبوغه بين أهل العلم"[11].

2– لقد استغرق الشيخ الطاهر ابن عاشور في تأليف هذا السفر العظيم المسمى التحرير والتنوير قرابة الأربعين سنة، تعطي الكتاب أهمية بالغة، لأن الكتاب طول هذه الفترة حظي من مراجعة الشيخ لمسائله، وتنقيح لمفرداته.

3– اشتمال التفسير على انتقادات الشيخ الطاهر ابن عاشور لمن سبقه من المفسرين كالزمخشري، والشاطبي، والطبري وغيرهم،، يورد آراءهم وينتقدها ويرجح ما ترجح لديه.

---

[7] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج1، ص 8-9.

[8] المصدر السابق، ج 1، ص 7

[9] المصدر السابق، ج 1، ص 5-6

[10] محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، إياد، خالد الطباع ، ص 81.

[11] المصدر السابق، ص 81.

4- اشتمل تفسير التحرير والتنوير جملة من تقعيدات للشيخ الطاهر ابن عاشور واستقراءات شخصية، وفوائد وفرائد توصل إليها من خلال تذوقه لمعاني القرآن، مما يعز وجوده في غير تفسيره، ويتفرد به عن غيره. ومثل هذه التقعيدات والاستقراءات تزيد بلا شك في أهمية كتاب التحرير والتنوير، وتجعله مبتغى كل الطلاب ومقصد كل متعلم.

المبحث الثالث: الأسلوب البلاغي في التحرير والتنوير

اهتم الشيخ رحمه الله بأوجه البلاغة العربية في القرآن الكريم وتراكيبه، وهو توفية للغرض الذي وضحه في مقدمة تفسيره حيث قال رحمه الله: "ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية ، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني وإظهار وجه الإعجاز ولذلك كان هذان العلمان يسميان في القديم علم دلائل الإعجاز"[12]، ولقد كان للبلاغة وأوجهها نصيبا وافرا من اهتمام الشيخ في تحريره، وأولاه منزلة عالية، فكانت مباحث البلاغة متوافرة، وتفصيل الشيخ لها وبيان أوجهها يملأ التفسير، والأمثلة على ذلك مما يصعب حصرها، بل يتطلب ذلك دراسات تجمعها وتحللها وتجلي منزلة الشيخ اللغوية التي مكنته من إبراز الأوجه البلاغية للقرآن الكريم بأسلوب لغوي نحرير. وفيما يلي إيضاح المباحث التي عنيت باهتمام الشيخ في تفسيره فيما يتعلق بعلم المعاني أو البيان.

---

[12] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ، ج 1، ص 19.

أولا: علم المعاني

وهو علم يعرف به أحوال الكلام العربي التي تهدي العالم بها إلى اختيار ما يطابق منها مقتضى أحوال المخاطبين، رجاء أن يكون ما ينشئ من كلام أدبي بليغا[13].

ومن أهم المباحث التي لقيت عناية الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره:

1- مبحث التقديم والتأخير:

يقول عنه الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[14].

ومن الأمثلة التي نوه فيه الشيخ الطاهر ابن عاشور بمبحث التقديم والتأخير وذكر بديعه البلاغي:

قوله رحمه الله عند تفسيره قوله تعالى: "واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون"[15]: "والنصر هو إعانة الخصم في الحرب وغيره بقوة الناصر وغلبته. وإنما قدم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أن انتفاء نصرهم محقق زيادة على ما استفيد من نفي الفعل مع إسناده للمجهول كما أشرنا إليه آنفاً"[16]. لأن انتفاء النصر مستفاد أيضا من نفس الشفاعة والعدل.

---

[13] البلاغة الواضحة، حبنكه، عبد الرحمن حسن، ، الطبعة الأولى، ج 1، ص 138.

[14] دلائل الإعجاز، الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، ص 106.

[15] سورة البقرة، الآية 45.

[16] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 1، ص 486.

وقوله رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: "بلى إن تصبروا وتتقوا يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين"[17]: " وعليه فموقع قوله : ""ويأتوكم" موقع وعد ، فهو المعنى معطوف على "يمددكم ربكم" وكان حقّه أن يرِدِ بعده ، ولكنَّه قدّم على المعطوف عليه ، تعجيلاً للطمأنينة إلى نفوس المؤمنين ، فيكون تقديمه من تقديم المعطوف على المعطوف عليه ، وإذا جاز ذلك التَّقديم في عطف المفردات كما في قول صَنَّان بن عَبَّاد اليَشْكُرِي :

ثمّ اشتَكَيْتُ لأَشْكانِي وسَاكنُه   قَبْرٌ بِسِنْجَارَ أَوْ قبر على قَهَدِ

قال ابن جنّي في شرح أبيات الحماسة : قدّم المعطوف على المعطوف عليه ، وحَسَّنه شدّة الاتِّصال بين الفعل ومرفوعه (أي فالعامل وهو الفعل آخذ حظَّه من التقديم ولا التفات لكون المعطوففِ عليه مؤخّراً عن المعطوف) ولو قلت : ضربت وزيداً عمراً كان أضعف ، لأنّ اتّصال المفعول بالفعل ليس في قوّة اتّصال الفاعل به ، ولكن لو قلت : مررت وزيد بعمرو ، لم يجز من جهة أنَّك لم تقدم العامل ، وهو الباء ، على حرف العطف . ومن تقديم المفعول به قول زيد :

جمعتَ وعيباً غِيبةً ونَمِيمَةً   ثلاثَ خصال لستَ عنها بمُرْعوِيْ

ومنه قول آخر :

لعن الإلهُ وزوجَها مَعَها   هِنْدَ الهنود طَوِيلَةَ الفعل"[18].

والأمثلة على ذلك كثيرة[19].

---

[17] سورة البقرة، الآية 125.

[18] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 4، ص 74.

[19] انظر على سبيل المثال: تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 1، ص 512، وج 1، ص 630، وج 3،ص 234، وج 5، ص 21، وج 10، ص 122، وج 11، ص 39، وج 22، ص 225، وج 23، ص 206.

2 – مبحث التفنن:

عرفه الشيخ بنفسه في مقدمة تفسيره بقوله: "ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذييل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم ، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو في القرآن كثير"[20].

ومن الأمثلة على ذلك من تفسير التحرير والتنوير:

قول الشيخ الطاهر رحمه الله: "ومن بديع المناسبة وفائق التفنن في ضروب الانتقالات في المخاطبات أن كانت العلل التي قرن بها الأمر بعبادة الله تعالى في قوله : ""يأيها الناس اعبدوا ربكم"[21] الخ هي العلل التي قرن بها إنكار ضد العبادة وهو الكفر به تعالى في قوله هنا: "كيف تكفرون بالله"، (فقال فيما تقدم : "الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون"[22] "الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء" "[23] الآية وقال هنا: "وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء"[24] وكان ذلك مبدأ التخلص إلى ما سيرد من بيان ابتداء إنشاء نوع الإنسان وتكوينه وأطواره. فالخطاب في قوله: "تكفرون" متعين رجوعه إلى " الناس" وهم المشركون لأن اليهود لم يكفروا بالله ولا أنكروا الإحياء الثاني"[25].

والأمثلة على ذلك كثيرة[26].

---

[20] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 1، ص 116.

[21] سورة البقرة، الآية 21.

[22] سورة البقرة، الآية 21.

[23] سورة البقرة، الآية 22.

[24] سورة البقرة، الآية 29

[25] االمصدر السابق، ج 1، ص 373.

[26] انظر على سبيل المثال: تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 1، ص 240، وج 1، ص 355، وج

3 – مبحث الالتفات:

ويعرفه البلاغيون "بأنه التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: التكلم – والخطاب – والغيبة، مع أن الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أولا دون التحول عنها"[27]. وقد أشار إليه الشيخ الطاهر ابن عاشور في مقدمة تفسيره وعده من أوجه الفصاحة[28]، وقد نال عناية الشيخ في أثناء تفسيره، والأمثلة على ذلك أكثر من تحصر، نكتفي بذكر شي منها:

قوله رحمه الله عن تفسيره لقوله تعالى: "وإذا قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظملتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه التواب الرحيم"[29]: " وقوله : ""فتاب عليكم" ظاهر في أنه من كلام الله تعالى عند تذكيرهم بالنعمة وهو محل التذكير من قوله: "وإذ قال موسى لقومه" إلخ فالماضي مستعمل في بابه من الإخبار وقد جاء على طريقة الالتفات لأن المقام للتكلم فعدل عنه إلى الغيبة ورجحه هنا سبق معاد ضمير الغيبة في حكاية كلام موسى"[30].

والأمثلة على ذلك كثيرة[31].

1، ص 713، وج 6، ص 139، وج 7، ص 282، وج 8، ص 201، وج 18، ص 97، وج 20، ص 5، وج 24، ص 53، وج 25، ص 14، وج 26، ص 270.

[27] البلاغة الواضحة، حبنكه، عبد الرحمن حسن، ج 1، ص 479.

[28] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 1، ص 109.

[29] سورة البقرة، الآية 54.

[30] المصدر السابق، ج 1، ص 505.

[31] انظر على سبيل المثال: تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 1، ص 599، وج 2، ص 39،وج 3، ص 133، وج 15، ص 105، وج 14، ص 98، وج 14، ص 174، وج 18، ص 174، وج 20، ص 206، وج 23، ص 105، وج 24، ص 13.

3 – مبحث الإيجاز:

يعرف في اصطلاح البلاغيين بأنه التعبير عن المراد بكلام قصير ناقص عن الألفاظ التي يؤدى بها عادة في متعارف الناس، مع وفائه بالدلالة والمقصود"[32].

وقد نوه الشيخ الطاهر ابن عاشور إلى المجاز في كلام الله تعالى، وأن القرآن جاء بأبدعه، ولهذا نال عناية الشيخ في تفسيره وكان متتبعا له ومظهرا لصورة بأجلى صورة وأوضح تعبير. وقد عد أنواع مجاز القرآن في ستة في مقدمة تفسيره[33]، سنوردها مع ذكر لبعض الأمثلة عليها من تفسيره رحمه الله:

النوع الأول: إيجاز الحذف:

وقد مثل له في مقدمته بقوله تعالى: "في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر"[34]، قال رحمه الله: "أي يتذاكرون شأن المجرمين فيقول من علموا شأنهم سألناهم هم فقلنا ما سلككم في سقر"[35].

وقوله رحمه الله: "وقوله : "فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم" أي فإن انتهوا عن قتالكم فلا تقتلوهم ؛ لأن الله غفور رحيم ، فينبغي أن يكون الغفران سنة المؤمنين ، فقوله : "فإن الله غفور رحيم" جواب الشرط وهو إيجاز بديع ؛ إذ كل سامع يعلم أن وصف الله بالمغفرة والرحمة لا يترتب على الانتهاء فيعلم أنه تنبيه لوجوب المغفرة لهم إن انتهوا بموعظة وتأييد للمحذوف ، وهذا من إيجاز الحذف"[36].

والأمثلة على ذلك كثيرة[37].

---

[32] البلاغة الواضحة، حبنكه، عبد الرحمن حسن، ج 2، ص 26.

[33] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 1، ص 122.

[34] سورة المدثر، الآية 40، 41، 42.

[35] المصدر السابق، ج 1، ص 122.

[36] المصدر السابق، ج 2، ص 206.

[37] انظر على سبيل المثال: تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ، ج 1، ص 412، وج 1، ص 642، وج

النوع الثاني: إيجاز حذف المضاف

وقد مثل له في مقدمة تفسيره بقوله تعالى: "ولكن البر من آمن بالله" أي ولكن ذا البر من آمن.

ومنها قوله رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: "واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان"[38]: "والمراد بالملك هنا مدة الملك أو سبب الملك بقرينة أن التلاوة لا تتعلق بنفس الملك وحذف المضاف مع ما يدل على تعيين الوقت شائع في كلام العرب كقولهم وقع هذا في حياة رسول الله أو في خلافة عمر بن الخطاب وقول حميد بن ثور :

وما هي إلا في إزار وعلقة   مغار ابن همام على حي خثعما

يريد أزمان مغار ابن همام . وكذلك حذف المضاف إذا أريد به الحوادث أو الأسباب كما تقول تكلم فلان على خلافة عمر أو هذا كتاب في ملك العباسيين وذلك أن الاسم إذا اشتهر بصفة أو قصة صح إطلاقه وإرادة تلك الصفة أو القصة بحيث لو ظهرت لكانت مضافة إلى الاسم ، قال النابغة :

وليلل أقاسيه بطيء الكواكب

أراد متاعب ليل لأن الليل قد اشتهر عند أهل الغرام بأنه وقت الشوق والأرق"[39].

وهناك أمثلة غير ما ذكر[40].

النوع الثالث: حذف الجمل التي يدل الكلام على تقديرها

وقد مثل له بقوله تعالى: فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك الحجر فانفلق"[41]، "إذ التقدير : فضرب فانفلق"[42].

2، ص 291، وج 6، ص 159، وج 7، ص 40، وج 11، ص 245، وج 24، ص 315.

[38] سورة البقرة، الآية 102.

[39] المصدر السابق، ج 1، ص 629.

[40] انظر على سبيل المثال: تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 2، ص 390، وج 3، ص 399، وج 11، ص 9، وج 16، ص 18، وج 27، ص 250، و ج 28، ص 103.

وقوله رحمه الله عند تفسيره قوله تعالى: "وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون"[43]: "وجواب "إذا" محذوف دل عليه قوله في الجملة المعطوفة "إلا كانوا عنها معرضين" . فالتقدير هنا: كانوا معرضين"[44] . ومن باب حذف جملة جواب الشرط.

والأمثلة على ذلك كثيرة[45] .

النوع الرابع: الإخبار عن أمر خاص بخبر يعمه وغيره لتحصل فوائد

هكذا سماه الشيخ الطاهر ابن عاشور رحمه، ويقصد بالفوائد: فائدة الحكم العام ، وفائدة الحكم الخاص، وفائدة أن هذا المحكوم عليه بالحكم الخاص هو من جنس ذلك المحكوم عليه بالحكم العام: وهذا لعله من باب إيجاز القصر والذي يعرفه البلاغيون بأنه "الإيجاز الذي لا يعتمد فيه على استخدام الحذف"[46].

وقد مثل الشيخ الطاهر ابن عاشور لهذا النوع في مقدمته[47] بقوله تعالى: "قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات"[48]، وبقوله تعالى: "رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة"[49].

---

41 سورة الشعراء، الآية 63.

42 المصدر السابق، ج 1، ص 122.

43 سورة يس، الآية 45.

44 المصدر السابق، ج 23، ص 31.

45 انظر على سبيل المثال: تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ، ج 7، ص 87، وج 7، ص 377، وج 9، ص 13، وج 13، ص 143، وج 15، ص 203، وج 17، ص 70، وج 18، ص 169، وج 23، ص 204، وج 30، ص 450.

46 البلاغة الواضحة، حبنكه، عبد الرحمن حسن، ج 2، ص 29.

47 تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 1، ص 122.

48 سورة الطلاق، الآية 11.

49 سورة البينة، الآية 2.

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره"[50]. يقول في تفسيرها الشيخ الطاهر ابن عاشور رحمه الله: " وهذه الآية معدودة من جوامع الكلم وقد وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بالجامعة الفاذة ففي "الموطأ" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "الخيل لثلاثة" الحديث . فسئل عن الحمر فقال : لم ينزل علي فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة : "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره"[51].

وفيه أمثلة غير ذلك[52].

النوع الخامس: التضمين

وقد عرفه الشيخ في مقدمة تفسيره ب"أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل في الجملة معنيان"[53].

من أمثلته في كلام الشيخ الطاهر ابن عاشور، قوله رحمه الله: "فإن اقتضى الحال تصرفا في معنى اللفظ كان التصرف بطريق التضمين وهو كثير في القرآن مثل قوله تعالى: "ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء"[54] فجاء فعل أتوا مضمنا معنى مروا فعدي بحرف على ؛ لأن الإتيان تعدى إلى اسم القرية والمقصود منه الاعتبار بمآل أهلها ، فإنه يقال أتى أرض بني فلان ومر على حي كذا . وهذه الوجوه كلها لا تخالف أساليب الكلام

---

[50] سورة الزلزلة، الآية 7، 8.

[51] المصدر السابق، ج 30، ص 495.

[52] انظر على سبيل المثال: تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 2، ص 145،وج 9، ص 229، وج 12، ص 80، وج 14، ص 88.

[53] المصدر السابق، ج 1، ص 123.

[54] سورة الفرقان، الآية 40.

البليغ بل هي معدودة من دقائقه ونفائسه التي تقل نظائرها في كلام بلغائهم لعجز فطنة الأذهان البشرية عن الوفاء بجميعها"[55].

والأمثلة على ذلك في كلامه كثيرة جدا[56].

النوع السادس: الجمل الجارية مجرى الأمثال

وقد مثل له الشيخ في مقدمته كقوله تعالى: "قل كل يعمل على شاكلته"[57]، وقوله: "طاعة معروفة"[58]، وقوله: "ادفع بالتي هي أحسن"[59].

والآيات التي تجري من هذا الباب كثيرة جدا، أوردها السيوطي في الإتقان[60] نقلا عن جعفر بن شمس الخلافة[61]، وسأذكر بعضها مع الإحالة على كلام الشيخ الطاهر ابن عاشور رحمه الله عليها في تفسيره:

1- قوله تعالى: "وَعَسى أَنْ تكرَهُوا شَيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ"[62] [63].

2- وقوله تعالى: "كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَة"[64] [65].

---

[55] المصدر السابق، ج 1، ص 113.

[56] انظر على سبيل المثال: تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 2، ص 120، وج 4، ص 172، وج 9، ص 39، وج 11، ص 240، وج 24، ص 262، وج 25، ص 209، و ج 29، ص 67.

[57] سورة الإسراء، الآية 84.

[58] سورة النور، الآية 53.

[59] سورة فصلت، الآية 34.

[60] الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، 1426 هـ، ج 5، ص 1942.

[61] هو أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبي عبد الله محمد بن شمس الخلافة مختار الأفضل الملقب مجد الملك الشاعر المشهور. ولد في 573 هـ، وتوفي في 622 هـ. وفيان الأعيان، ابن خلكان، ج 1، ص 362.

[62] سورة البقرة، الآية 216.

[63] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 2، ص 319.

[64] سورة البقرة، الآية 249.

3- وقوله تعالى: "لا يُكَلّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها"[66] [67].

4- وقوله تعالى: "لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّون"[68] [69].

5- وقوله تعالى: "ما عَلى الرَّسُولِ إلا البَلاغُ"[70] [71].

6- وقوله تعالى: "قُلْ لا يَسْتَوي الْخَبيثُ وَالطَّيِّب"[72] [73].

7- وقوله تعالى: "لِكُلّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍ"[74] [75].

8- وقوله تعالى: "وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيراً لأسْمَعَهُم"[76] [77].

9- وقوله تعالى: "ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبيل"[78] [79].

10- وقوله تعالى: "الآن وَقَدْ عَصيت قبلُ"[80] [81].

---

[65] المصدر السابق، ج 2، ص 495.

[66] سورة البقرة، الآية 286.

[67] المصدر السابق، ج 3، ص 134.

[68] سورة آل عمران، الآية 92.

[69] المصدر السابق، ج 4، ص 5.

[70] سورة المائدة، الآية 99.

[71] المصدر السابق ، ج 7، ص 60.

[72] سورة المائدة، الآية 100.

[73] المصدر السابق ، ج 7، ص 62.

[74] سورة الأنعام، الآية 67.

[75] المصدر السابق ، ج 7، ص 286.

[76] سورة الأنفال، الآية 23.

[77] ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، ج 9، ص 302.

[78] سورة التوبة، الآية 91.

[79] المصدر السابق ، ج 10، ص 294.

ثانيا: علم البيان

وهو علم يبحث في كيفيات تأدية المعنى الواحد بطرق تختلف في وضوح دلالاتها، وتختلف في صورها وأشكالها وما تتصف به من إبداع وجمال، أو قبح وابتذال[82].

ومن أهم المباحث البيانية التي لقت عناية الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره:

1- التشبيه:

يعرفه البلاغيون بأنه "الدلالة على مشاركة شيء لشيء في معنى من المعاني أو أكثر على سبيل التطابق أو التقارب لغرض ما"[83]. وقد نوه إليه الشيخ الطاهر في مقدمة تفسيره فقال رحمه الله: "وقد جاء في القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب كقوله: "واشتعل الرأس شيبا"، وقوله: "واخفض لهما جناح الذل"، وقوله: "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار"، وقوله تعالى: "ابلعي ماءك"، وقوله: "صبغة الله"، إلى غير ذلك من وجوه البديع"[84].

ومن الأمثلة عليه في كلام الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره:

قوله رحمه الله في تفسير قوله تعالى: "مثلهم كمثل الذي استوقد نارا" الآية[85] : "والإخبار عنهم بهذه الأخبار جاء على طريقة التشبيه البليغ شبهوا في انعدام آثار الإحساس منهم بالصم البكم العمي أي كل واحد منهم اجتمعت له الصفات الثلاث وذلك شأن الأخبار الواردة بصيغة الجمع بعد مبتدأ هو اسم دال على جمع ، فالمعنى كل

---

[80] سورة يونس، الآية 91.

[81] المصدر السابق ، ج 11، ص 277.

[82] البلاغة الواضحة، حبنكه، عبد الرحمن حسن، ج 2، ص 126.

[83] المصدر السابق، ج 2، ص 161.

[84] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 1، ص 109.

[85] سورة البقرة، الآية 17.

واحد منهم كالأصم الأبكم الأعمى وليس المعنى على التوزيع فلا يفهم أن بعضهم كالأصم وبعضهم كالأبكم وبعضهم كالأعمى ، وليس هو من الاستعارة عند محققي أهل البيان . قال صاحب "الكشاف": "فإن قلت هل يسمى ما في الآية استعارة قلت مختلف فيه والمحققون على تسميته تشبيها بليغا لا استعارة لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون"اهـ"[86].

والأمثلة على إبراز هذا المبحث البياني في آيات القرآن كثيرة جدا في كلام الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير[87].

2- المجاز:

ويعرفه البلاغيون بأنه ما عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة"[88].

والشيخ الطاهر ابن عاشور ممن يرى المجاز في القرآن، يقول رحمه الله: " والذي يجب اعتماده أن يحمل المشترك في القرآن على ما يحتمله من المعاني سواء في ذلك اللفظ المفرد المشترك ، والتركيب المشترك بين مختلف الاستعمالات، سواء كانت المعاني حقيقية أو مجازية، محضة أو مختلفة . مثال استعمال اللفظ المفرد في حقيقته ومجازه قوله تعالى: "ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس" فالسجود له معنى حقيقي وهو وضع الجبهة على الأرض ومعنى مجازي وهو التعظيم، وقد استعمل فعل يسجد هنا في معنييه المذكورين لا محالة. وقوله تعالى: "ويبسطوا إليكم أيديهم

---

[86] المصدر السابق ، ج 1، ص 313 - 314.

[87] انظر على سبيل المثال: تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 2، ص 65، وج 2، ص 156، وج 2، ص 242، وج 5، ص 120، وج 6، ص 178، وج 9، ص 269، وج 20، ص 158، وج 21، ص 87.

[88] أسرار البلاغة، الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، ص 395.

وألسنتهم بالسوء" فبسط الأيدي حقيقة في مدها للضرب والسلب ، وبسط الألسنة مجاز في عدم إمساكها عن القول البذيء"[89].

وقد أكثر الشيخ الطاهر ابن عاشور من إثبات المجاز في تفسيره، ومواضع ذلك مما يعسر حصرها في هذا المقام، لكن حسبنا أن نقف على بعض المعاني التي جعلها الشيخ رحمه الله من المجاز:

صفة الرحمة في حق الله[90]، إسناد الختم إلى الله[91]، نسبة القسوة إلى القلوب[92]، معنى "راعنا"[93]، إسناد الخلو إلى أصحاب المكان[94]، المجاز في لفظ "سبيل الله" وفي إسناده[95]، الكرسي[96]، تسمية المهور أجورا[97]، نسبة الإحزان إلى الذين يسارعون في الكفر[98]، المجاز في المسارعة في الكفر[99]، نسبة اليد لله[100]، إسناد الجزاء إلى المثل[101]، إطلاق الشيطان على المضلل الذي يفعل الخبائث[102]، استواء الله على عرشه[103].

---

89 تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 1، ص 99.
90 المصدر السابق ، ج 1، ص 169.
91 المصدر السابق ، ج 1، ص 257.
92 المصدر السابق ، ج 1، ص 562.
93 المصدر السابق ، ج 1، ص 651.
94 المصدر السابق ، ج 1، ص 735.
95 المصدر السابق ، ج 2، ص 213.
96 المصدر السابق ، ج 3، ص 23.
97 المصدر السابق ، ج 6، ص 124.
98 المصدر السابق ، ج 6، ص 197.
99 المصدر السابق ، ج 6، ص 198.
100 المصدر السابق ، ج 6، ص 249.
101 المصدر السابق ، ج 7، ص 47.
102 المصدر السابق ، ج 8، ص 9.
103 المصدر السابق ، ج 8، ص 164.

والأمثلة على ذلك كثيرة[104].

النتائج:

من أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال هذا البحث:

1- أن الشيخ الطاهر ابن عاشو رحمه الله نشأ في بيئة كريمة وأسرة علمية، بالإضافة إلى الجو العلمي الذي كان يعيش فيه الشيخ، وزخم العلم الذي كان يضخه جامع الزيتونة، والذي نهل منه الشيخ الطاهر ابن عاشور منذ المراحل الأولى من حياته العلمية، كل ذلك جعل من الشيخ الطاهر ابن عاشور العالم الفذ الذي أصبح الطلاب يقصدونه من كل فج ينهلون من علمه وفكره

2- أن تفسير الشيخ الطاهر ابن عاشور أراد له أن يجمع فيه بين ما كتبه الأقدمون وما استجد في حياة المسلم المعاصر، من أفكار جديدة وعلوم حديثة اختلطت بحياة الفرد والمجتمع، وصار جزءا لا يتجزأ من الكيان الإنساني.

3- اهتمام الشيخ الطاهر ابن عاشور بالجانب البلاغي بعلميه المعاني والبيان، كان من أكثر سمات هذا الكتاب، وذلك من خلال إبداع الشيخ في توضيح معاني الآيات وإبراز جمالها البلاغي.

المصادر والمراجع:

- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، الطبعة

---

[104] انظر على سبيل المثال: تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج 8، ص 11، وج 8، ص 34، وج 9، 109،وج 9، ص 188، وج 9، ص 213، وج 11، ص 209، وج 11، ص 265، وج 11، ص 272، وج 12، ص 12، وج 12، 14.

الأولى، 1426 هـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

- أسرار البلاغة، الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
- البلاغة الواضحة، حبنكه، عبد الرحمن حسن، الطبعة الأولى، 1996 م، دار القلم، دمشق.
- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، 1984 م، ، الطبعة الأولى، الدار التونسية للنشر.
- دلائل الإعجاز، الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، تحقيق محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة، 2004 م، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- شيخ الإسلام والإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور، ابن الخوجة، محمد الحبيب، 2008 م ، الدار العربية للكتاب، تونس.
- شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، الغالي، بلقاسم، 1996 م، الطبعة الأولى، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، هيا، ثامر مفتاح العلي، الطبعة الأولى، 1994 م، دار الثقافة، الدوحة.
- محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، إياد، خالد الطباع، الطبعة الأولى، 2005 م، دار القلم، دمشق.
- وفيات الأعيان، ابن خلكان، شمس الدين أحمد، ، ، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، 1994م، دار صادر، بيروت.